

بذور النحو الوظيفي في التراث العربي

نص من كتاب اللسانيات الوظيفية مدخل نظري لأحمد المتوكل

هذه خلاصة ما ورد في الفكر اللغوي العربي القديم من المبادئ المنهجية التي نعتقد أنها تشبه، من قريب أو من بعيد: المبادئ، المنهجية التي تحكم الدرس اللغوي الوظيفي المعاصر. أ-تعتبر اللغة عند المفكرين العرب القدماء، وسيلة للتواصل يتوسط بها البشر للتعبير عما يعن لهم من أغراض. يقول ابن جني في هذا الصدد، معرفا اللغة: حد اللغة أنها أصوات يعبر بها كل قوم من أغراضهم. ويقول صاحب الأحكام في أصول الأحكام في السياق نفسه ما مفاده أن نشأة اللغة كانت لاحتياج البشر إلى معرفة بعضهم بما يجول في خاطر البعض وتحقيق ما يرومون تحقيقه من أغراض.

ب- هذا التصور للغة على أنها مؤدية لوظيفة التواصل كان وراء توجيه الدراسات اللغوية خاصة منها البلاغية والأصولية نحو محاولة من الترابط القائم بين بنية اللغة ووظيفتها. فباعتبار التراكيب اللغوية وسائل تأدية أغراض تواصلية معينة، أنصبت هذه الدراسات على تحصيل العلاقة بين كل نمط من أنماط التراكيب والغرض المتوخى تحقيقه. على أساس هذا المبدأ، درست مجموعة من الوظائف في التقييد والتوكيد، «التخصيص... في علاقتها بالتراكيب التي تتحقق بواسطتها:

أ- تعتبر وظيفة التقييد الوظيفية التي يسعى من ورائها إلى توضيح قصد المتكلم والكشف عن مراده وهي كذلك وظيفة تربية الفائدة. وتؤدي هذه الوظيفة بواسطة إضافة مكونات إلى نواة الجملة يطلق عليها، لذلك مصطلح: المقيدات.

2-يعرف البلاغيون التوكيد بأنه الوظيفة الواردة في كل اخبار يرمي به المتكلم إلى تنبيه المخاطب إلى أن مضمونه ليست ناتجة عن سهو أو نسيان. من هذا التعريف، نتبين أن التوكيد وسيلة لتقوية الإخبار وتقديمه على أساس أنه مقصود فعلا. من التراكيب المؤدية لهذه الوظيفة التراكيب المزدوج فيها الضمير والتراكيب المتضمنة لضمير النفس والتراكيب المسورة:

أ-بنيت أنا هذه النار

ب-جاء خالد نفسه

ج-حضر الضيوف كلهم.

والتخصيص في الفكر اللغوي العربي القديم هو تصحيح أو تعديل معلومة من معلومات المخاطب يعدها المتكلم معلومة غير واردة. فالمتكلم، في هذه الحالة، يعبر عن شيئين اثنين: مصادقته على المعلومة التي يعتبرها واردة ومخالفته للمعلومة التي ينكر ورودها.

وتؤدي وظيفة التخصيص بواسطة نقل المكون الحامل للمعلومة التصحيحية أو حصره أو إدماج الضمير بين المخبر عنه والمخبر به كما هو الشأن بالنسبة للتراكيب التي تمثل لها بالجمل التالية:

●

أ-هندا أحببت

ب-عمر أهديت الكتاب

●

أ-التي أحببتها هند

ب-الذي أهديته الكتاب عمرو

•

أ-ما أحببت إلا هند.

ب-ما أهديت الكتاب إلا عمرا

ج-إن هندا إلا شاعرة.

•

أ- خالد هو القادم.

ب- هند هي الشاعرة

على أساس تحديد الوظيفة للبنية أي على أساس أن التراكيب اللغوية رسائل التعبير عن أغراض تواصلية معينة. ان هذا التصور العلاقة بين الوظيفة والبنية ينعكس في تنظيم النحو كما اقترحت بعض البلاغيين كالجرجاني حيث يمثل في البنية الأساس الغرض من الكلام الذي يعتبر دخلا لقواعد النحو التي تنتج عن تطبيقها البنية اللفظية وللجملة .

ج - يمكن، انطلاقا من نصوص أصولية وبلاغية ، استخلاص مجموعة من الآراء تشكل تصور اللغويين العرب القدماء لما يسمى، الآن، القدرة اللغوية . بينا في مكان آخر ، أن المعرفة اللغوية في نظر هؤلاء اللغويين :ثلاث معارف: معرفة لسانية ومعرفة لغوية ومعرفة خطابية. وتصل بين هذه المعارف الثلاث علاقة اقتضاء، حيث تقتضي المعرفة الخطابية المعرفة اللغوية التي تقتضي المعرفة اللسانية .

1-ينطلق المفكرون العرب القدماء من مسلمة أن الكائن البشري يملك معرفة فطرية لمقولات وعلاقات دلالية أساسية قائمة في ذهنه قبل أن يواجه عملية تعلم اللغة. ويقتصر تعلم اللغة:

اعتمادا لهذه المسلمة، على اكتساب الوسائل اللفظية المتوفرة في اللغة المتعلمة للدلالة على المقولات والعلائق الدلالية المفطور عليها المتكلم-السامع. ففي رأي الجرجاني، مثلا تقوم في نفس الإنسانية، قبل تعلمه للغة، مفاهيم الرجل والفرس وغيرهما ومقولات الاستفهام والنفي والاستثناء ومجموعة من العلاقات كعلاقة الإستاذ مثلا. ويتعلم الإنسان عن طريق تجربته اللغوية الألفاظ والتراكيب التي تستخدمها لغته للدلالة على هذه المفاهيم والمقولات والعلائق.

2- يشكل «المعرفة اللغوية امتلاك المتكلم السامع لـ الأوضاع المتعارف عليها في عشيرته اللغوية، أي القواعد التي تكون نسق لغته. هذه القواعد، كما أسلفنا قواعد تربط بين الخصائص البنيوية للغة والخصائص الوظيفية.

3- يكتسب المتكلمون للغة ما، بالإضافة إلى أوضاع هذه اللغة قواعد تؤهلهم لإنتاج خطاب تماسك ومتسق، قواعد تنقلهم من معرفة الأوضاع اللغوية الصرف إلى امتلاك الفصاحة والبلاغة. وتكمن الفصاحة أو البلاغة في امتلاك القدرة على تنظيم الخطاب حسب ما يقتضيه المقام وما يستلزمه الغرض المتوخى تحقيقه.

هذه المعارف الثلاث تشكل، في الواقع، ما قدرة لغوية واحدة ذات مستويات ثلاثة متداخلة بقتضي بعضها بعضا حيث لا يقوى المتكلم على امتلاك القواعد الخطابية إلا إذا كان يمتلك لنسق اللغة ولا يستطيع تعلم هذا النسق إلا إذا كانت لديه معرفة سابقة بما تستعمل اللغة من أجل الدلالة عليه إذ إن المواضع اللغوية لا يمكن أن تبنيه إلا إذا كان المتواضعون مدركين: مسبقا، لما يتواضعون على الدلالة عليه

د- لم يتحدث اللغويون القدماء كثيرا عن مفهوم الكليات اللغوية وإنما يستشف من بعض النصوص الأصولية والبلاغية أنهم كانوا مدركين لما يؤلف بين اللغات وما يخالف بينها.

بصفة عامة، يمكن القول إنه، بالنسبة لهؤلاء المفكرين تأتلف اللغات جميعها، على تباينها، في تقاسم الدلالة على نفس المفاهيم والمقولات والعلائق الدلالية. في هذا الصدد، نشير إلى نص لصاحب الموافقات مفاده أن الدلالة دالتان: دلالة أصلية، ودلالة تابعة على اعتبار أن الدلالة الأولى دلالة مطلقة تتقاسمها جميع اللغات وأن الدلالة الثانية دلالة خاصة بلغة بعينها.

ويبرز هذا التمييز أن الدلالة الأولية، وحدها قابلة للنقل من لغة إلى لغة أي قابلة للترجمة.

هـ- يجمع البلاغيون والأصوليون على أن موضوع الدراسات اللغوية هو رصد خصائص التراكيب في علاقتها بأنماط المقامات التي يمكن أن تنجز فيها وبالأغراض التواصلية التي يمكن أن نستعمل لتحقيقها. ففي جميع الدراسات التي اقترحت في إطار البلاغة والأصول، يلاحظ هاجس وصف الرابط القائم بين أنماط التراكيب وما يطابقها من أنماط مقامية كما سبق أن بيناه أعلاه.

- و- يرد في أوائل فصول دلائل الإعجاز نص يبرز تصور الجرجاني للنحو. مفاد هذا النص أن النحو يعني بالإعراب وما شاكله من المسائل اللفظية الصرف لا يمكن أن يعد نحواً وأن النحو هو الوصف الذي يجاوز رصد الخصائص اللفظية إلى رصد العلاقات القائمة بين اللفظ والمعنى باعتبار المعنى مجموع الوسائط التي تتفاعل في تحديد الصورة التركيبية للجملة.

بهذا المعنى، يمكن أن نقول ان النحو الذي كان يدعو إليه الجرجاني ومن حذا حذوه من البلاغيين والأصوليين نحو وظيفي باعتبار قيامه على مبدأ ضرورة الربط بين بنية اللغة والوظيفية التي تؤديها في التواصل

- مناقشة:

- ماهي مؤشرات توفر فكرة الوظيفية في التراث العربي القديم.